

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة واسط / كلية التربية



الترقيم الدولي لليونسكو ١٩٩٤ - ٤٢١٧

مجلة كلية التربية

عدد خاص

بأبحاث المؤتمر العلمي الخامس لكلية التربية جامعة واسط

المنعقد تحت شعار :

بأقلام باحثينا نصنع الحياة

١٣ - ١٤ نيسان ٢٠١٢

أثر المكان في فهم الجملة عند سيبويه

أ.م.د. حسن عبد الغني الأسدي / كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

ملخص البحث:

ورد المكان في الفكر السيبويهي في جانبين؛ الأول: الظرف الذي تتضمنه الجملة والثاني: ظرف الجملة، وتمثله البيئة التي تتم بها عملية التواصل؛ وهو ما توجهنا إليه هنا. فوظيفة النحوي لدى سيبويه تتجلى في أن تتم دراسة الكلام في إطاره الاجتماعي التداولي؛ لأن اللغة العربية عنده كانت لغة خطاب ولم تكن لغة معيار يراد تعلم قواعدها لارتقاء الفصاحة. على الرغم من أن المكان عنصر غير لغوي إلا أن المتكلمين يضمنونه في كلامهم؛ وقد مثل الاهتمام به في التحليل النحوي عند سيبويه ريادة له وإحساساً منه باللغة المؤداة فوق مرحلته على نحو نزع به والأمور أخرى بعربية سيبويه وبصريته؛ تلك العربية التي تمثلها ثقافته، ونمط تفكيره وانتماؤه إلى المكان؛ وإلى هذه اللغة التي درسها. وسيبويه من بعد عربي فصيح؛ شهد له القاصي والداني بما لم يشهدوا به لغيره خلا أستاذة الخليل. فالعربية لغته الأم، وبصريته الثقافية والاجتماعية واضحة في كتابه. ولقد اتخذ في معالجة نصوصها منحى يصعب على غير ابن اللغة وبيئتها اتخاذه هو منحى يقوم على الاستقصاء والوصف ثم التفسير.

نقد انعكس الاهتمام بظرف التكلم عند سيبويه في محاور أبرزها:

١. المحور الأول: حول الكتاب وصاحبه
٢. المحور الثاني: بنائية اللغة أو هيكليتها المعمارية عند الخليل وسيبويه.
٣. المحور الثالث: الأثر التداولي للمتكلم في البناء النحوي للكلام.
٤. المحور الرابع: الافتراض السياقي للخطاب (الخلف).

كان كتاب سيبويه إرهاباً لقواعد تفكير لغويّ شهنشئة البصرة، وهو تفكير تم تطويره على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، وتلميذه سيبويه (ت ١٧٥هـ) وهو تفكير ينتمي إلى بيئته، ويستوحى بعض مظاهرها البصرية. في مقابل من يقول بالأثر الخارجي، ولعل العروج على قومية سيبويه، والتأكيد على أصله الفارسي، شيء من لمح ذلك الأثر فهو شجرة فارس أنت أكلها في البصرة. ونحن هنا نعتقد أن شيئاً يمكن أن يقال ههنا في عربية سيبويه؛ ومن الواضح أننا لن نأتي على ذكر الجينات الوراثية لقطع النزاع، بل حجتنا في ذلك بعض ما دونه سيبويه نفسه وشيئاً مما دونه المؤرخون. والأمر - على ما أرى - متعلق بإظهار عربية سيبويه وبصريته اجتماعياً وثقافياً، لما نعلم من أثر البيئة في تنمية أبنائها وتأطير ثقافتهم بخصائصها المكانية والزمانية.

لقد نظر الاتجاه التداولي في الدرس النحوي المعاصر إلى الكلام بوصفه إنجازاً تتوارد فيه أثار متعددة من خارج اللغة فتكتلها جملة ودلالات مفرداته، ومن هنا: ((يلزم أن تدرس الأساليب والأنماط اللغوية داخل إطار العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع وتحليل تلك الأساليب إلى عناصرها الصوتية والبنائية والنحوية والدلالية لاستكناه هذه العلاقة وبيان طبيعة النمط الأدائي في اللغة ومدى تأثيره بالفعل الاجتماعي))^(١). ولزيد على هذا القول أن جزءاً من تلك التداولية تكمن في عالم اللغة نفسه فهو لم يكن بمنأى عن التأثير بالبيئة وحاله في ذلك كحال المتكلم، فسيعمد بوعي أو بغيره إلى اكتناز عناصر المكان والزمان والميول الاجتماعية المعاشة في عملية فهم مكونات درسه اللغوي، ومحاورة ومنهج معالجة لغته. فلا يقصر النظر التداولي على مكونات اللغة ذاتها، بل يضاف عليها الطرائق المتبعة لفهمها، لا سيما أن واحداً من نتائج النظر إلى كتاب سيبويه هو خطابية اللغة في عصره فسيبويه تعامل مع الكلام العربي بوصفه خطاباً متداولاً بين أفراد بيئته، وهو في نحوه لم يكن بمعزل عن الحركة العلمية ولا سيما إنجازات الفقهاء والمفسرين في عصره. فالكاتب بوصفه إنجازاً حضارياً هو وليد ظروف علمية واجتماعية ونفسية: عامة، وخاصة مرت بها البصرة، وعالمها الخليل وسيبويه في تلك الحقبة المهمة من الحضارة العربية الإسلامية.

ومنهجي في البحث الاعتماد على ما قاله الخليل وسيبويه فسطورهما أحق بأن نردها لفهمهما، على العموم فنحن في هذا البحث سنلج جوانب مختلفة نظهر فيها مدى التفاعل الكبير بين النحوي المبدع وبيئته التي استزاد منها مسارات لإبداعه. والمكان من بعد عنصر غير لغوي، إلا أن المتكلمين يعمشون إلى اكتنازه في أدائهم؛ وإن استرجاعه أو استحضاره في التحليل النحوي - عند سيبويه - يمثل في نظرنا جانباً من الإحساس العميق بالانتماء إلى البيئة البصرية العربية. وكان له أثر فاعل في

(١) أسلوب النداء دراسة لغوية صوتية: ٨٨.

توجهات الدرس السيبيوي، وإثراء بعض جوانبه. ونرى أن هذا العنصر انعكس في محاور عدة أبرزها:

١. المحور الأول: الكتاب وصاحبه
٢. المحور الثاني: بنائية اللغة أو هيكلتها المعمارية عند الخليل وسيبويه.
٣. المحور الثالث: الأثر التداولي للمتكلم في البناء النحوي.
٤. المحور الرابع: الافتراض السياقي للخطاب (الخلف).

المحور الأول

الكتاب وصاحبه

سيبويه بصري واضح البصرية، وعربي فصيح شافه الأعراب وسمع منهم وروى عنهم الكثير، وله منهج للنظر في كلامهم أخذ أسسه عن أستاذه الخليل؛ حتى أن طريقة تناوله النحو تختلف اختلافاً بيناً عن طريقة معاصريه وخلفيه و((...الصورة التي يمثلها سيبويه هي الدليل الأوضح على أن النحو العربي في بداياته لم يكن معيارياً خالصاً، بل كان أصق ما يكون بالتنظير اللساني الحديث. وهو ما قاد النحويين الأوائل إلى الوصول إلى مفاهيم غاية في الدقة والعمق والغنى النظري. ومن ذلك القول بأن الإعراب إنما هو نتيجة لعمل الكلمات بعضها في بعض. وقد اكتشف المتخصصون في اللسانيات الحديثة، وبخاصة في إطار اللسانيات التوليدية، هذا الغنى النظري في النحو العربي المبكر. وهو ما دعا هؤلاء إلى القول بأن النحو العربي في صورته تلك يتشابه مع الدراسات اللسانية الحديثة، إن لم يتماثل معها، في الأهداف وفي طريقة البحث وفي الوصف والتفسير))^(٢). وهو أمر يلاحظ مع كل صفحة من صفحات الكتاب، ولا يبعد أن عمق الانتماء إلى البيئة واللغة هما الأساس الأول في هذه الوصفية التفسيرية التي ظهرت عند الخليل وسيبويه. ولم تظهر عند خلفيه الذين تسلطت عليهم هبة سيبويه وسطوته، فلم نرى أثراً لمعايشتهم للغة في بيئتها، فلم يكونوا نحويين بل كانوا رواة النحو^(٣).

وعلى الرغم مما قيل في أن سيبويه لم يضع اسماً لكتابه فإنه يرى أن كتاب سيبويه أو الكتاب هي تسمية من وضع سيبويه متأثراً بتسمية القرآن الكريم كتاب الله، وكما أن القرآن كتاب الله المهيمن على كل الكتب السماوية، فكذا أراد سيبويه أن يكون لكتابه تلك المنزلة في النحو العربي فإلى جانب ما تعارف عليه الناس زمن سيبويه بإظهار ما يمتازون به فنجد حفاوة كل قبيلة بإظهار كتابها أو ديوان

(٢) مراجعات لسانية مقالة لنحويين الرواة: ٢٠٧. حمزة بن قبلان المزيني كتاب الرياض

(٣) وهي تسمية استعملها د. حمزة بن قبلان المزيني في بعض مقالاته، ينظر: كتاب الرياض القسم الثاني: ٢٠٥.

شعرها لأنه صورتها التي تحب أن تعرف بها، فقد أورد سيبويه نصا ينطق بحاله، إذ قال: ((وتقول إذا نظرت في الكتاب: هذا عمرو؛ وإنما المعنى: هذا اسم عمرو، وهذا ذكر عمرو، ونحو هذا، إلا أن هذا يجوز على سعة الكلام...))^(١). إذ يبدو أنه قد أراد نفسه هنا فصراح باسم (الكتاب) واسم صاحبه عمرو وهو اسمه.

كما يعزز هذا الانتماء اسم سيبويه، فلو تخيلنا للحظة أن سيبويه لم يعرف بهذا اللقب بل عرف باسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، أو عرف بإحدى كناه (أبي بشر أو أبي الحسن أو أبي عثمان)، فهل من يسمع بهذا الأسماء والنسب يقول أنه فارسي الأصل، فكل هذه الأسماء عربية عريقة في العربية^(٢)، وليست من أسماء العجم بل إن اسم قنبر أو قنبر^(٣)، أو قنبر كما في الجمهرة^(٤) عربي فتح، والقنبرة طائر معروف، وجاء في العين قوله: ((القنبر: ضرب من الحمر، ودجاجة قنبرانية: على رأسها قنبرة، أي، فضل ريش قائم، مثل ما على رأس القنبرة. قال أبو الدقيش: قنبرتها: التي على رأسها))^(٥).

ما يعني صعوبة أن يُسمى به من ولد في البيضاء في أصطخر من بلاد فارس وتركها صبيبا ليسكن البصرة، فهو قول لا يمسجم وواقع الحياة الاجتماعية وظروفها. فلا يبعد أن تكون البصرة محل ولادته ومرتع صباه، ولا أقل من أن تكون محل سكن عائلة جدّه قنبر، وإذا قدرنا ذلك بالسنين وأخذنا في الحساب مدة خمسين سنة لكل جيل تكون هذه العائلة قد عرفت العربية لغة وبيئة مع بداية انتشار الإسلام خارج الجزيرة؛ فوفاة سيبويه كانت (١٨٠ أو ١٧٥ هـ) ولما كان لكل جيل ٥٠ سنة على ما هو متعارف فـ (١٥٠) تكون لثلاثة أجيال وبذا فعائلة سيبويه في (٣٠ هـ تقريبا) كانت في بلاد العرب علما أن فتح أصطخر كان في حدود ٢٨ هـ أو بعد ذلك بقليل^(٦)؛ فلا أقل من أن والد سيبويه فضلا عن سيبويه كان يعيش في البيئة العربية، وهو ما تقويه الرواية التي تذكر أن جدّ سيبويه (قنبر) دخل

(٤) الكتاب ٣/٣٦٩، وينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه: ٤٠.

(٥) يرى الأستاذ علي النجدي ناصف- سيبويه إمام النحاة: (٧٤) من متعلق تسليمه بأصل سيبويه الفارسي أن في تنبئ هذه الأسماء من عائلة سيبويه زلّقى إلى الأمويين، وتودوا لعصبيتهم القومية لأنها من الأسماء التي اشتهروا بها. ولا يعدو هذا القول التخمين وسوء الظن بهذه العائلة، لا سيما أن هذه الأسماء يسمي بها العرب عامة لا الأمويون فقط، وأن ولادة سيبويه كانت بعد انهيار دولتهم، ولم يعرف من عائلته أنها توددت للأمويين ليقال ذلك في أسمائهم. كما أن سيبويه لم يكن مباليا بهم أو بخلفاء بني العباس وولاتهم، ولم تكن رحلته إلى بغداد طلبا للزلفى عند الأمراء وحبا في صلاتهم، وشهرته أوسع من تأثي عليها بعض حيل الكسائي والقراء.

(٦) ينظر: سيبويه إمام النحاة: ٧٤.

(٧) قال في الجمهرة (١٣٤/٢) : ((وقنبر: اسم، وأحسب النون زائدة. والقنبر: طائر، وربما قالوا قنبر)).

(٨) العين ٥/٢٦٤.

(٩) ينظر: فوح البلدان: ٢/٤٨٠. البلاذري القاهرة مطبعة لجنة البيان العربي.

المحور الثاني

بنائية اللغة أو هيكليتها المعيارية عند الخليل وسيبويه

تبدو المقولات التي تشير إلى تأثير الإنسان ببيئته في الميادين العلمية شيئاً مألوفاً بل لقد كانت عند بعضهم مسلماً للإيداع ونذكر هنا مؤسس علم اللغة الحديث دوسوسير فقد تأثر بمقولات دوركايم عالم الاجتماع في رؤيته للغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، وكذا تأثر بلومفيلد بأراء عالم النفس السلوكي بافلوف؛ وتأثر تشومسكي بفلسفة ديكارت وغير ذلك؛ وكذا الحال في نقل بعض الاصطلاحات من علم إلى آخر كما في استعمال مصطلح القدرة البنائية للفعل وهو من مجال الكيمياء إلى المجال النحوي. وقد كانت للمستشرق كارتر وقفات لامعة نمت عن قدر عال من العلمية ومن تلك الوقفات تأمله في مصطلحات سيبويه لا سيما في باب الإحالة من الكلام والاستقامة فقد ربطها بعلم الأخلاق الإسلامية، وهو في هذا من أوائل من دافع عن الأصول الإسلامية للنحو العربي ووقف في وجه العديد من ممن زعموا نسبة النحو العربي إلى المنطق الأرسطي؛ يقول بعض الباحثين في كارتر: ((هو يرى أن مفاهيم النحو إن لزم لها أن لها جذوراً وأصولاً، ينبغي البحث عنها في حقول المعرفة الإسلامية وليس خارجها؛ نظراً لتفاعلها الطبيعي المدهش داخل البنية المركبة للعقل العربي والمسلم، وخلافاً لما ذهب إليه د.عابد الجابري الذي إن سلمنا له بأن ما ورد في باب الاستقامة من الكلام والإحالة هو جهة من جهات أو موجات Modalites مركبة، ومعلوم أنها شديد الصلة بالمنطق))⁽¹⁴⁾.

وقد تبين لي -بدراسة خاصة- أن سيبويه أتبع منهاجاً تفسيرياً مستوحى من عمل المفسرين، لذا وسمت منهجه في تناول الكلام بالمنهج التفسيري. ويتجلى وعي سيبويه لكيفية فهم كلام العرب، ودراسته بقوله في (مررت بقائماً رجلاً): ((فهذا كلام قبيح وضعيف. فأعرف قبحه، فإن إعرابه يسير. ولو استحسناه لقلنا هو بمنزلة: فيها قائماً رجلاً؛ ولكن معرفة قبحه أمثل من إعرابه))⁽¹⁵⁾؛ فمهمة النحوي عند سيبويه لا تقتصر على معرفة الإعراب، والأولى له أن يعرف جهات صحة الكلام وقبحه، ولا يتأتى ذلك إلا بعد معرفة أسرار الكلام وعقله تشفعه سليفة لغوية، وحسن مرهف لا يتأتى إلا لمن كانت العربية رفيقه ومؤنسه. والنحوي عند سيبويه يجب أن يُعنى بما تكلمت به العرب؛ لا بما لم يسمع منها؛ قال سيبويه: ((وتجزي هذه الأشياء التي هي على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام ومما هو الكلام على ما أجروا فليس كل حرف يحذف منه شيء ويثبت فيه نحو بك ويكن ولم أبال وأبال، لم يحملهم ذاك على أن يفعلوه بمثله ولا يحملهم إذا كانوا يثبتون فيقولون في مرز أمرز

(14) القيد لتداولي عند سيبويه : ٢٤٩.

(15) كتاب سيبويه : ١٢٤/٢.

الإسلام في عهد الإمام علي (عليه السلام) وقد يكون سماه على اسم موله قنبر (رض) (١٠). ومن هنا كيف يتسنى القول بولادة سيبويه باصطخر، ثم مجيئه البصرة مبكراً ١١٢، مع فصاحته التي ظهرت مع أولى دروسه في تلقي الحديث عند حماد بن سلمة!، وعلى العموم فتفاصيل نشأة سيبويه وعائلته قليلة ويعتريها الغموض، ولا يبعد كونها أسرة عربية غير معروفة اختلق لها هذا النسب لأسباب كثيرة.

وإذا كان المعول في فارسية سيبويه لاحقة لقبه (ويه) التي قيل أنها فارسية تعني رائحة، وسبب التي تعني ثلاثين، فسيبويه نفسه يذكر كونها مما يلحقه العجم بالأسماء كما في النص الذي يقول فيه: ((وأما عمرويه فإنه زعم^(١١) أنه أعجمي، وأنه ضرب من الأسماء الأعجمية، وألزموا آخره شيئاً لم يلزم^(١٢) الأعجمية، فكما تركوا صرف الأعجمية جعلوا ذا بمنزلة الصوت، لأنهم رأوه قد جمع أمرين، فحطوه درجة عن إسماعيل وأشباهه، وجعلوه في النكرة بمنزلة غاق، منوثة مكسورة في كل موضع)) (١٣). فواضح أن سيبويه يرى أن (ويه) التي لحقت (عمرو) ليست مما يلحقه العجم بأسمائهم، فهي أشبه بتصويث يلحق هذا الاسم فهو نقي واضح لكون اللاحقة أعجمية؛ ويبدو أن ذكره اسم عمرو دون غيره (وهو اسم سيبويه) يكشف رغبته في إظهار عربيته ويعزز كون (ويه) من اللواحق التي كان البصريون يوردونها أسماءهم. ولقد أكد النحاة في باب الممنوع من الصرف أنهم لا ينظرون إلى لفظة سيبويه في منع صرفه أو بذائه على الكسر بوصفه أعجمياً بل لأنه علم مركب، ما يدعونا للنظر إلى هذا اللقب بوصفه انعكاساً لبعض العلاقات الاجتماعية التي تبرع في اختيار الألقاب تندرا أو تشنيعاً أو لمجرد التمييز فيوردون الكنى والألقاب بعضهم على بعض، خاصة لمن كان بارزاً من بين أقرانه ونحو ذلك.

ولا يبعد أن تكون المنافسة بين العلماء عاملاً في مثل هذه رغبة بالحط من منزلة سيبويه؛ فلقد كان سيبويه لا يدانيه أحد كما كانت البصرة معلمة للكوفة وبغداد بالخليل وسيبويه وقبلهما بأبي عمرو بن العلاء. ولقد استشعر الكسائي الكوفي حاجته لمعرفة ما عند سيبويه، ومثله الفراء؛ ولقد بسّين لسا الكسائي أن مثل هذا المسلك قد يصدر منه ومن مناصريه بما حدث في المسألة الزنبورية، وقد روى الفراء أنه بعد أن بحث عن سيبويه وجده لا يحسن نطق جملتين نطقاً صحيحاً، ولكنهم بعد موته وجدوا تحت وسادة رأسه نسخة من الكتاب! (١٤).

(10) كتاب سيبويه: ٧، محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

(11) ممن الممكن قراءة الفعل مبنياً للمجهول (زعم) لا (زعم أي: الخليل).

(12) أورد علي التجدي ناصف النص: ((والزموا آخره شيئاً يلزم الأعجمية)) (بولا ٥٢/٢-٥٣) نقلاً عن طبعة

بولا ٥٢/٢ ولما عنت إليها، وجدت أن المذكور فيها (لم يلزم) ؟! وكذا في طبعة المحقق عبد السلام محمد هارون

(٣٠١/٣) وأيضاً طبعة أخرى للكتاب بهامشه تحصيل عين الذهب للشمسري نشر مؤسسة الأعلمي: ٦٠/٢ ؟!.

(13) كتاب سيبويه: ٣٠١/٣.

أن يقولوا في خذْ أَوْخِذْ وفي كُلْ أَكُلْ؛ فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسّر^(١٦)؛ وأن القياس النحوي له خصوصيته فقد لا يطرد في بابه، وبذا فهو أداة لفهم الكلام لا لتقييد الاستعمال. فمنهج سيوييه منهج الوصف التفسيري^(١٧)، ففي الوقت الذي يحافظ على المسموع والمروي من كلام العرب، يؤسس لحالة تالية يضع لها معياره الخاصة لاستكشاف أنساق الكلام وتحولاته، وتفسير ظواهره. فالطريق الذي شقه الخليل وسيوييه يرى أن كلام العرب بوصفها منجز من منجزات الإنسان بمنزلة البناء يبنيه الإنسان كما يبني بيته، فكانت هيكلته ومكوناته تستعير هيكلية البيوت ومكوناتها، فلقد تم رصد هندسة تلك البيوت وآلية ارتفاع جذرائها وترتيبها على نحو منظم وترصف قطع اللبن فيها أفقياً وعمودياً ليستقيم البناء، والإفادة منها في تفسير بناء الجملة وامتدادها، وتربط ألفاظها وتأثير بعضها ببعض. وهو أمر برز في عمل سيوييه بنحو واضح، فكانت البيئة مصدر إثراء في التأسيس لمرحلة جديدة من الدرس النحوي وهي مرحلة لفتت الأنظار إليها، برائدها الخليل وتلميذه سيوييه، تقوم على فكريّ تنظيريّ رصين لا ينفصل عن بيئته. بل انجازها تم على يد بعض أبنائها ممن لا يتعجب منه ذلك، فلا دخيلة فيه لتأثير خارجي كما يحلو لبعض الباحثين القول به.

تلك الخطوة التي ظهر بها في الكتاب لم تكن إلا انعكاساً لحضوره المهيمن على الدرس النحوي في زمنه؛ وما ورد في الكتاب فيه الغناء لبيان الفكر البنائي لدى الخليل وتلميذه، لكن النص الذي أورده الزجاجي (ت ٣٢٧هـ) في كتابه الإيضاح في علل النحو عن الخليل يعد وثيقة من الخليل نفسه أبان فيها عن منهجيته؛ إذ أجاب عما وقع من استغراب أو استنكار لطرائقه في التعليل لكلام العرب؛ قال الزجاجي:

((ذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد - رحمه الله - سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو، فقليل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: إن العرب نطقت على سجيبتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علته، وإن لم يُنقل ذلك عنها واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما علته منه، فإن أصبت العلة فهو الذي التمس، وإن تكن هناك علة له فمئلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء؛ عجيبة النظم والأقسام؛ وقد صحت عنده حكمة بانيتها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلمها وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها، قال: إنما فعل هذا هكذا لعله كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا. سنحت له وخطرت بباليه محتملة لذلك. فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعللة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك

(١٦) كتاب سيوييه ٢٦٦/١.

(١٧) يبدو أن هذا المنهج هو في الأصل منهج الخليل وينضح ذلك من تتبع تعليقاته التي ذكرها سيوييه، ينظر بحث: التعليل في الدرس النحوي (نظرة في أصول اللغة) في غير موضع؛

العلّة؛ إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علّة لذلك، فبأنه سنج لغيري علّة لما علّته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها ((^{١٨})، وهو طريق وصفها الزجاجي بقوله: ((وهذا كلام مستقيم وإصناف من الخليل (رحمة الله عليه)))^{١٩}.

لقد صور الخليل موقفه من اللغة بما يألّفه الناس، ويعجبهم في أحيان كثيرة وتأخذهم روعة بذاته، وقد ألفوا الحرمان من مثله، فأغلب سكنهم في بيوت من طين البصرة وقصبها وجريد نخيلها، وجذوعه، فكان لتمثيل الخليل ما يثير في النفوس التطلّع نحو ما سيقوله هذا الحاذق في أسباب هذا البناء وأوضاع جدرانه وأبوابه ونوافذه، على أن استغرابهم قد يلح عليهم فيقول واحد منهم متعجبا: أين الخليل من هذا البناء؟! وهو يعيش في خص لا يشعر به، ترفعا عن تلك القصور التي لو أراد الوصول إلى مثلها لما أعجزته همته لكنه أثر الابتعاد عن التزلّف لولاء عصره الظلمة. وعلى وفق هذا الوضع الاجتماعي لتشبيه اللغة بالبناء عمل الخليل مقاربه للكلام في بيان منهجيته، التي ندلنا على ما يأتي:

١. النظام النحوي يقوم على أسس عقلية، قائمة في عقول متكلمي تلك اللغة. ويمكن أن تكون تلك الأسس هي مجموعة الأصول التي ظهرت عند سيبويه في إطار نظرية الأصول النحوية عنده^(٢٠)، وهي التي تمثل المستوى القبلي المتحكم بطبيعة تكوين المستوى الظاهر وطبيعة التحولات التي تطرأ على الكلام.
٢. الكلام عبارة عن بناء (نسق) منظم. ويتخذ هذا النسق بعددين: أفقي وعمودي.
٣. تتخذ الجملة للتكوين العمودي لوحداًتها فمكونات الجملة ترتفع الواحدة فوق الأخرى.
٤. تمثل كل لبنة في هذا البناء لفظة مرتبطة بلفظة أخرى في الأكل. وتتألف اللبنة بمثل سلسلة الكلام.
٥. تتخذ اللبنة الأولى في هذا البناء موقع الأساس الذي ترتفع عليه بقية لبنة الصف، وبذا فكل لبنة فيه هي متعلقة في الأصل بذلك الموقع.
٦. الاحتياج إلى الموقع الأساس يمثل الرابط بين لبنة البناء في الصف العمودي الواحد.
٧. الكلام (الأداء) هو الذي يعتمد للوصول إلى الكشف عن النظام اللغوي وقواعده التي تعطيه هذا الانتظام لا أن تعتمد المفاهيم المجردة لإقامة تصوراتنا حول ذلك النظام. لأن الدار واقع يتأمله الحكيم.

وقد عمل الخليل على توظيف تصوره البنائي لهيكل اللغة في الجملة العربية، وما قدمه تلميذه

(18) الإيضاح في عل النحو : ٦٥ - ٦٦ .

(19) الإيضاح في عل النحو : ٦٦ .

(20) للتفصيل : ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه : ٢٢٣ - ٢٤٨ .

سببويه في هذا الجانب يمكن أن يفسر في ضوء النص الخليلي، بل هو الذي أبرز ذلك النص بوصفه عملاً تنظيرياً متقناً في تحليل الجملة العربية. ولعل أولى الملاحظات في هذا الإطار تكمن في دخول ألفاظ مادة (بنى) في النحو، وقد استعملها الخليل في كتابه الجمل في النحو بقوله في أم: ((ولذلك لا تجيء مبتدأة إنما تكون على كلام قبلها مبنية استفهاماً أو خبراً))^(٢١)؛ وقال في موضع آخر: ((... فأما الذي هو اسم للفعل فمبني على الفتح لا يضاف ولا يدخله التنوين))^(٢٢). وكتاب سببويه زاجر باستعمال هذه المادة فمن النظر إلى ترابط الألفاظ داخل الكلام فالثاني مبني على الأول، إلى حالة البناء المقابل للإعراب، إلى بناء المفردة؛ وقد أحصيت لهذه المادة في الكتاب (٩٨٩) مورداً. وهذا يشير إلى مدى تأثير فكرة البناء في نحو الكتاب.

لقد أكد الخليل هذا المنحى الانشائي في تحليله لكلام العرب بقوة عندما صاغ مصطلحات الجملة الأساسية باعتماده على مادة (سند) فأطلق الإسناد على العلاقة النحوية بين طرفي الجملة، ومنها اشتق مصطلحي ركني الجملة، ولا يخفى رجوع المعنى اللغوي لهذه المادة إلى البناء لدلالاتها على الارتفاع كالجبل ونحوه، فأطلق لفظة السند على المبتدأ ولفظة المسند على خبره؛ جاء في العين في مادة (سند) قوله: ((السند: ما ارتفع من الأرض في قبل جبل أو واد. وكل شيء أسندت إليه شيئاً فهو مُسند. والكلام سندٌ ومُسندٌ كقولك: عبد الله رجلٌ صالح، فعبد الله سندٌ ورجلٌ صالحٌ مُسندٌ إليه))^(٢٣). ويعني هذا أن وجود لفظة ما في الموقع الأول في الجملة (أساس البناء) ينتج لزوماً وجود موقع ثانٍ يرتفع فوقه في أقل تقدير. فالكلمة الأولى اتسمت بقدرة موقعية ويُعبر عن هذه القدرة بـ(إفراغ أو خلق مجالات نحوية) هي المحال التي تشغلها الأسماء للقيام بوظائفها في الجملة. وهو تصور لبناء الجملة يترسم معالم بناء الجدار كما هو واضح فوضع اللبنة الأولى يجعلها سبباً في إيجاد محل فوقها تشغله لبنة أخرى. وهكذا تتابع اللبنة الواحدة فوق الأخرى مع استنادها في الأصل على اللبنة الأولى العلة الأساس لإقامة البناء^(٢٤). ولكننا نلاحظ أن هذه الرؤية قام سببويه بتطويرها كما سيأتي لاحقاً.

من جانب آخر فإن ترسّم معالم البناء في النحو كان له أثره في التأسيس لنظرية العامل، التي كان فيها للعلماء والباحثين جولات من الأخذ والرد، بعد أن اصطبغت بصبغة فلسفية، أو منطوقية غير

(21) الجمل في النحو للخليل: ٣٣٩.

(22) الجمل في النحو للخليل: ٣٣٨.

(23) العين: ٢٢٨/٧-٢٢٩.

(24) ينظر: المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سببويه دراسة وتحليل ١٠١، وتكوين الجملة وامتنادها عند سببويه

في ضوء منهجه التفسيري للنحو: ٨٥.

النظرة السيوبيهية^(٢٥). ذلك لأننا استناداً إلى تداولية هذه اللفظة في تلك الحقبة التي ظهرت فيها نظرية العامل في الكتاب نلن أن هناك ربطاً بين اختيارها للدلالة النحوية الجديدة ودلالاتها اللغوية أو العرفية، فقد ذكر صاحب العين ما يدل على تعلّقها بحقل (الإنشاء والبناء) فالعامل ((والعملة: الذين يعملون بأيديهم ضروباً من العمل حفرًا وطيناً ونحوه... وتقول: أعطه أجر عمله وعمله. ويقال: كان كذا في عملة فلان علينا، أي: في عمارته. ورجل عميل: قوي على العمل. والعمول: القوي على العمل، الصابر عليه، وجمعه: عمل. وأعملت إليك المظي: أتعبتها. وفلان يعمل رأيه ورُمحه وكلامه ونحوه عمل به. والبناء يستعمل اللين إذا بنى))^(٢٦). فالربط واضح بين العامل في النحو وما يمكن أن يمثلته البناء في المحيط الاجتماعي، فالعامل هو الذي يبني الجملة، وهو تصوّر يعود بالعامل إلى معطيات لغوية- مكانية، وينأى به عن الجدل الذي قام حول نظرية العامل بين المتأخرين وفي العصر الحديث. ولو تأملنا ذلك لوجدنا أن عامل الجملة هو اللبنة الأولى، وهي اللفظة التي تشغل موقع المسند. وعملها لا يقتصر على الجانب التكويني (المجرد) بل إن التكوين يمتد ليُفسر بقية الربط بين مكونات الجملة وموقع المسند في البداية، ولكنه يفيد من الجانب الدلالي للألفاظ (الاعتداد بسمات المسند الدلالية) لاسيما فيما يقتّمه سيوبيه في هذا الجانب^(٢٧)، بل إنه في المفاعيل التي تلي المفعولين (الثلاثة) يبدأ العامل النحوي والدلالي بالضعف ليتمّ تقوية الربط من جانب آخر يتمثل بمتطلبات العملية الكلامية التي تدخل فيها رغبة المتكلم. وأهمية هذا الجانب في النحو العربي واضحة، وهي بحاجة إلى تفصيل ليس هذا محله.

ويبدو واضحاً أن سيوبيه قد أثر نظرة أستاذه فطّح يستعمل مصطلحاته البنائية، الدالة على هيكلية معمارية في عموم المصطلحات النحوية فمن حالات الإعراب (النصب والرفع والجر أو الخفض) التي استعوض بها عن الحالات الصوتية (الفتح والضم والكسر) إلى التعبير عن ملازمة الكلمة لحالة واحدة أصطلح عليها بالبناء في قبالة التغير (الإعراب) إلى مصطلحات أركان الجملة الأساسية، وعلاقات الربط بين الوظائف داخل الجملة.

وكان لهذه الصورة الإنشائية صدى في ترتيب الأبواب النحوية فمواضع النصب كانت مقدمة في كتاب الجمل المنسوب إلى الخليل بن أحمد، وفي كتاب سيوبيه، وإذا كان كتاب الجمل لا يسعفنا في الوقوف على سبب هذا الاختيار من الخليل نفسه لاختصاره فعند سيوبيه الكثير الذي يُظهر النصب بوصفه موضع العمل الحقيقي للعامل النحوي، لأن موضع الرفع الرئيسي في الجملة وهو المسند إليه

(25) ينظر: المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيوبيه دراسة وتحليل ٦: وما بعدها.

(26) العين: ١٥٤/٢.

(27) وذلك في باب الاستقامة من الكلام والإحالة وهو الباب السادس من مقدمة كتابه وفي مواضع أخرى من كتابه.

ما لازم للمسند (فعلاً أو اسماً)، وهذا التلازم لا يظهر عمل المسند بوضوح. فكان النصب هو ميدان العمل النحوي، لأن الوظائف المنصوبة تلبي احتياجات العامل الرئيسي في الجملة (المسند) وتلبي حاجة المتكلم، وهو أمر ينسجم مع الدلالة المتداولة في أيامها للفظ (نصب) المنتمية إلى حقل الإنشاء، فقد جاء في العين قوله: ((النَّصَبُ: الإِعياء والتَّعب... والنَّصْبُ: حَجَرٌ كان يُنْصَبُ فيُعْبَدُ وتُنْصَبُ عليه دِمَاءُ الذَّبائح وجمعه أنْصاب. والنَّصْبُ: العَلَمُ. والنَّصْبُ: جماعة النَّصِيبِ، وهي علامة تُنْصَبُ للقوم... والنَّصِيبُ واحدة النِّصائِبِ، وهي نِصائِبُ الحوض، وهي حِجَارَةٌ تُنْصَبُ حِوَالِي شَفِيرِهِ فتُجْعَلُ له عِصَاهُ. والنَّصْبُ: رَفْعٌ شَيْئاً تُنْصَبُ قائماً مُنْصَباً. والكلمة المنصوبة يُرْفَعُ صوتُها إلى الغار الأعلى. ونَاصِبَتُ فلاناً الشرُّ والحَرْبُ والعداوة ونحوها. وكلُّ شيءٍ اسْتَقْبَلَتْهُ فقد نَصِيبَتْهُ. وتُؤَسُّ أنْصَبُ، وعِزَّةٌ نِصْبَاءُ، أي مُنْصَبُ القَرْنِ. وناقَة نصباء: مُنْصَبَةٌ مُرْتَفَعَةُ الصَّدْرِ))^(٢٨).

فدلالات ألفاظ هذه المادة ترتبط بالارتفاع والجهد، ورفع الشيء يستوجب الجهد، وفيهما جانبى البناء والعمل. مع انسجام هذه الدلالة مع وضعية النطق التي يتخذها اللسان بارتفاع قليلة نحو سقف القم (الغار). كما أنه عبر عن الموضع الأول للنصب وهو المصدر المنصوب بفعله بأنه حمل على فعله من ذلك قوله في العين: ((التَّبُّ الخسار، وتَباً له، نصب لأنه مصدر محمول على فعله كما نقول: سقى فلان، ومعناه: سقى فلان سقى، وتَباً يتب تباباً وتباً، ولم يجمع اسماً مستنداً إلى ما قبله))^(٢٩)، فمحمول لفظة تضاف إلى الألفاظ الدالة على الارتفاع والبناء. ومن استعملاتها البارزة الحمل على المعنى^(٣٠)، ولقد اتخذ النصب منزلة وسطى بين الرفع والخفض (ولا يخفى تعلق هاتين اللفظتين بمجال البناء)؛ لأن الرفع استعمل نقيض الخفض وهو الجر، كما في العين بقوله: ((والرَّفْعُ: نَقِيضُ الْخَفْضِ. قال:

فَاخْضَعْ وَلَا تُنْكِرْ لِرَبِّكَ قُدْرَةً ... فَاللهُ يَخْفِضُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْفَعُ
وَالرَّفْعَةُ نَقِيضُ الدَّلَّةِ.))^(٣١).

المحور الثالث

الأثر التداولي للمتكلم في البناء النحوي

(28) العين :

(29) العين : ١١٠/٨ .

(30) ينظر: كتاب الجمل في النحو: ٦٥، و١٢٦ و١٦٨ وغيرها.

(31) العين: ١٢٥/٢.

الملاحظة الأولى التي تستوقفنا هنا أن سيبويه لم يرتض اصطلاح أستاذة الخليل على ركني الجملة بـ (السند والمسند)؛ بل عمد إلى صياغة مطوّرة عنهما فاستعمل مصطلحي المسند والمسند إليه؛ وهو ما نجده في أولى صفحات الكتاب بقوله: ((هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بداً فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك؛ ومثل ذلك يذهب عبد الله. فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدّ من الآخر في الابتداء))^(٣٢). فاختار لفظة (مسند عوضاً عن مصطلح أستاذة سند، واختار المسند إليه عوضاً عن المسند) ((وهو استعمال أكثر إحصاءً إلى أثر المتكلم في صياغة الجملة فهو الفاعل الحقيقي للكلام الذي يقوم بوضع هذه اللفظة أولاً وفي (المسند) وصياغتها على وزن اسم المفعول من الرباعي (أسند) إشارة إلى تأثير هذه اللفظة أو تقبلها لفعل سابق هو فعل المتكلم الذي أنشأها في أول الكلام؛ على حين أن (سند) لا يلمح منها هذه الدلالة فكان سيبويه أراد أن يشير إلى البناء الحكيم الذي أنشأ الدار. ولا يغيب عنا أن فهم الجملة يتوقف في بعض مجالاته على تحديد هوية المتكلم ومقصده وبخاصة في إدراك المحتوى الدلالي للجملة))^(٣٣).

وهو أمر لم ينتبه له الخليل فأقام تصوره للجملة (سند + مسند) على بعد لغوي صرف لبناء الجملة بإرجاعه ذلك إلى اللفظة الأولى في الجملة. على حين إن تطوير سيبويه لبنائية الجملة توجّ بنظرة تداولية، نحو البعد الاجتماعي لبناء الجملة، فصور بذلك مجالا من مجالات عدة لفهم الجملة، تدخل فيه العلاقات السياقية التي تلاحظ في سلسلة الكلامية، على نحو يتم النظر إلى الكلام بوصفه عملية تفاعل بين المتكلمين، وهو يعمل على التكيف لمتطلبات الحياة الاجتماعية، ومتطلبات التواصل بين الأفراد، وهو تحول مهمّ تمّ رصدّه في اللسانيات المعاصرة فـ ((نلاحظ النقلة النوعية في اللسانيات التداولية التي تجاوزت في دراسة الإنتاج اللغوي البنية الصوتية والنحوية والدلالية إلى البحث في الآثار الاجتماعية والإجازية للغة، فأصبحت اللغة في ظل هذا التحول قضاء للإجاز والممارسة والفعل، حيث الأمر والنهي والاستفهام، وغيرها مما يمثل إجازات لغوية))^(٣٤).

كما نظر إلى الجملة بكونها نسج من المعلومات يتم تبادلها بين المتكلمين، لكن هذه المعلومات متفاوتة في أهميتها للمخاطب فبعضها يعلمها المخاطب، والأخرى جديدة، وفي ظل جملة من التوافقات

(32) كتاب سيبويه: ٢٣/١.

(33) تكوين الجملة وأستاذة غند سيبويه: ٨٥.

(34) المرجعية اللغوية في النظرية التداولية: ١٢.

بين طرفي العملية الخطابية (المتكلم والمخاطب) على نحو يشبه ما عرف عند بعض الوظيفيين بمبدأ التعاون^(٣٥).

على ذلك فإن أساس بناء الجملة يتم استثماره وظيفياً فيحتل المسند موقع المعلومة المشتركة ويحتل المسند إليه موضع المعلومة الجديدة^(٣٦). وقد أدرك سيبويه هذه النظرة الوظيفية بقوله: ((لأنه إنما ينبغي لك أن تسأله عن خبر من هو معروف عنده كما حدثته عن خبر من هو معروف عنده فالمعروف هو المبدوء به ولا يبدأ بما يكون فيه اللبس وهو النكرة ألا ترى أنك لو قلت كان إنساناً حليماً أو كان رجل منطلقاً كنت تلبس لأنه لا يستكر أن يكون في الدنيا إنساناً هكذا فكرهوا أن يتذعوا بما فيه اللبس ويجعلوا المعرفة خبراً لما يكون فيه هذا اللبس))^(٣٧)، وهو من الأصول المقررة عند سيبويه بقوله: ((وأحسنه إذا اجتمع نكرة ومعرفة أن يبتدئ بالأعرف وهو أصل الكلام))^(٣٨). ويلحظ أن ذلك صيغ قواعدياً بعدم جواز الابتداء بالنكرة.

ولكن هذه النظرة الوظيفية للجملة متحولة بسبب عوامل متعددة. فقد يشغل هذين التركيبين معاً موضع المعلومة المتواطأ عليها فيكون موضع المعلومة الجديدة في المراتب النحوية التالية كالمفاعيل، ويتم هذا إعادة صياغة الجملة وظيفياً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء ١٦)؛ فالحال لآعين يمثل المعلومة الأهم في الجملة فاثبت خلق السماء والأرض وزاد أن خلقها لم يكن لعباً.

على وفق ذلك سنجد تحولات كثيرة تطال الجمل على ما يحتمل من مقامات تجعل صورتها التداولية مختلفة عما يرى من صورتها النحوية. ومن هنا فمعظم التحولات التي تطرأ على النمط الأساسي للجملة العربية من مثل التقديم والتأخير والحذف واختزال الفعل تتم بدوافع تداولية، وهو أمر لم يرغب عن سيبويه أن يسجله في كتابه العتيد؛ فالمتكلم يستعمل نمط الجملة البنائي والدلالي لإظهار قصده؛ ففي قولك: ضربت زيداً ((إن قدمت الاسم فهو عربي جيد كما كان ذلك عربياً جيداً، وذلك قولك: زيداً ضربت؛ والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواءً مثله في ضرب زيداً عمراً

(35) تقوم قواعد التخاطب عند غريس على مبدأ التعاون، فالممارسة اللغوية عنده نشاط عقلي هدفه التعاون بين المتخاطبين. وينص غريس على مبدأ التعاون بقوله: ((اجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه، في مرحلة حصولها، لغرض أو العمل المسلّم به من التخاطب المعقود)). ينظر: الاقتضاء في التداول اللساني: ١٤٦، وينظر: اللغة والمعنى والسياق: ٢٢٨-٢٢٩.

(36) تجدر الإشارة هنا إلى أن الجانب النحوي الوظيفي لا يقتصر في تكوينه على المعلومات التي تنتمي له من دلالة الألفاظ المفردة، بل بما تقرضه تلك الدلالة من آثار على تكوين الجمل وطبيعة الوظائف التي يمكن أن تؤديها.

(37) كتاب سيبويه: ٤٨/١.

(38) كتاب سيبويه: ٣٢٨/١.

وضرباً عمراً زيداً^(٣٩). فالعناية والاهتمام المشار إليهما قرينة خارجية لا قرينة لغوية، وهي قرينة يقدّر المتكلم أهميتها لدى المخاطب، ولا تخفي قرينة الإعراب في إبراز العناية والاهتمام.

ويعمل سيبويه على تأكيد هذا الجانب بأن من الكلام ما لا يراد منه مقتضى ظاهر بذاته بقوله: ((وأما ما ينتصب في الاستفهام من هذا الباب فقوئك أقيماً يا فلان والناس قعوداً وأجلوساً والناس يعدون؛ لا يريد أن يخبر أنه يجلس ولا أنه قد جلس وانقضى جلوسه ولكنه يخبر أنه في تلك الحال في جلوس وفي قيام. وقال الراجز وهو العجاج: (أطرباً وأنت قنصري)، وإنما أراد أن تطرب أي أنت في حال طرب؟ ولم يرد أن يخبر عما مضى ولا عما يستقبل. ومن ذلك قول بعض العرب أغد كغدة البعير، وموتاً في بيت سلوية كأنه إنما أراد أغد غدة كغدة البعير، وأموت موتاً في بيت سلوية، وهو بمنزلة أطرباً وتفسيره كتفسيره^(٤٠).

ومع حرص سيبويه على إظهار البنية الأصل لهذا الأسلوب يؤكد أنه لا يراد من هذه التراكيب الإخبار أو الاستخبار بالقدر الذي يريد المتكلم تنبيه المتلقي إلى قصده من الإنكار، أو التحسر.

ويقول سيبويه: ((هذا باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل؛ وذلك قولك أتميمياً مرة وقيسياً أخرى؛ وإنما هذا أنك رأيت رجلاً في حال تلون وتنقل فقلت أتميمياً مرة وقيسياً أخرى كأنك قلت أتحوّل تميمياً مرة وقيسياً أخرى فانت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه ولكنه وبخه بذلك. وحدثنا بعض العرب أن بني أسد قال يوم جبلة واستقبله بعير أعور فتطير منه فقال يا بني أسد أعور وذا ناب فلم يرد أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته ولكنه نبههم كأنه قال أتستقبلون أعور وذا ناب فالاستقبال في حال تنبيهه إياهم كان واقعاً كما كان التلون والتنقل عندك ثابتين في الحال الأول وأراد أن يثبت لهم الأعور ليحذروه^(٤١).

ويدعو أن سيبويه هنا أراد أن يظهر أن البنية التركيبية طليعة في إظهار هذه المقاصد الوظيفية بما يوفره سياق إنجازه سواء أكان التركيب معتمداً على البنى الفعلية (ومنها المصدر) أو بنى اسمية كما في النص. وهذا السياق هو العنصر غير اللغوي الفاعل في فهم الجملة وهنا ومن ثم إظهار المراد منها؛ استكاراً أو تعجباً أو تحسراً، أو توبيخاً أو تطويلاً وغير ذلك.

(39) كتاب سيبويه: ٨٠/١-٨١.

(40) كتاب سيبويه: ٣٣٨/١.

(41) كتاب سيبويه: ٣٤٣/١.

المحور الرابع

الافتراض السياقي للخطاب (الخلف)

لا يخفى فيما تقدم أن سيبويه اكتنز عنصر المكان في بعد تحليلي آخر لفهم الكلام وهو ما أطلق عليه سيبويه نفسه (الحال)، وهو سياق واقعي للكلام لكننا وجدنا أن سيبويه في مواضع كثيرة يعمد إلى وضع سياق افتراضي يستوحيه من التركيب نفسه يعمل على تمثله بوصفه ظرف الجملة الخارجي، ولما كان هذا السياق افتراضيا وهو يركز على مكونات الجملة وعلاقاتها فهو يمثل (المحتوى الدلالي للجملة). وهو كما يبدو محاولة من سيبويه للعودة بالجملة موضع التحليل إلى محيطها التداولي الذي ولدت فيه. ولا يبعد إفادة سيبويه وأستاذه مما يصاحب بعض التراكيب التي تجري على ألسنة الناس سجرى المثل، ليؤسساً للتحليل السياقي في النحو العربي، وهي طريقة قريبة الشبه بالطريقة التفسيرية في فهم النصوص القرآنية بالاعتماد على أسباب نزولها. ومن ثم كان الانتقال من تفسير التراكيب التي ذكرت معها مقاماتها إلى تفسير تراكيب افتقرت إلى سياقاتها، معتمدين في ذلك تشابه الأنماط وطبيعة العلاقات بين مكونات تلك التراكيب ودلالات ألفاظها.

إن التأطير التداولي الذي أسبغه سيبويه على الكلام لم يكن لمحة عابرة في منهجه النحوي بل إن تتبع الأسئلة والتراث في النظر إليها يبين أن طائفة من أبواب الكتاب تم صياغتها طبقاً لوضعها المقامي أو وظيفتها التداولية ومن أمثلة ذلك قوله: ((هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه؛ نقول أتاني زيد الفاسق الخبيث لم يرد أن يكرره ولا يعرفك شيئا تنكره ولكنه شتمه بذلك. وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد: ١)، لم يجعل الحمالة خيرا للمرأة، ولكنه كأنه قال: أذكر حمالة الحطب شتما لها، وإن كان فعلا لا يستعمل إظهاره. وقال عروة الصعاليك العبسي:

سَقَوْنِي الْخَمْرَ ثُمَّ تَكَنَّفُونِي عُدَاةَ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ

إنما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطبين^(١٦). فقد تحولت الأوصاف التي يعلمها الناس (معلومة مشتركة) إلى أن تكون مركبا للمعلومة المهمة وهي القصد (الشتم).

نقد أرسى سيبويه أسس تحليله لكلام العرب على مسوغات من توجهات المتكلمين والمخاطبين وغائبين يمكن ملاحظتهم في الجملة وظلالها، فكل أثره في الكلام، وأنماطه والوظائف المطلوب إيرادها في الجملة، فالنحو عنده علم يتوجه إلى الكلام بوصفه تداوليا، وإن للألفاظ وعلاقاتها أثرا

(42) كتاب سيبويه: ٧٠/٢.

واضحاً في الكشف عن سمات هذا التداول. ويبدو أن سيبويه قد تنبّه إلى الجانب الأساس من اللغة وهو الكلام ولم يغيب عنه أن الكلام اتجار يؤديه المتكلم في إطار من المؤثرات الخارجية التي تتحكم بتوجهات المتكلم وتبعاً لذلك تتحكم بالحدث اللغوي (الكلام)؛ وذلك بمحاولاته الدؤوبة لاستعادة السياقات التي ولدت فيها العملية الكلامية؛ وهي عناصر خارج الكلام ووحداته الصغرى أو الكبرى لكن الكلام يستطيع أن يختزن داخله تلك العناصر الخارجية. وقد استعملنا نه (المحتوى الدلالي للجملة) ونعني به: كلّ سمة من سمات المعنى التي تمتلكها ألفاظها مفردة ومركبة، مع سياق مقامها الذي قيلت فيه وقدرتها على تزويد النحوي أو المتلقي بما يمكنه من استعادة الملابسات التي اكتنفت ولادة الجملة⁽⁴³⁾.

ويبدو سيبويه على وعي كامل بأهمية هذا السياق الافتراضي في إعادة رسم صورة المقام الذي ولدت فيه الجملة لفهم ما طرأ على وحداتها من تغييرات نحوية لا تتضح لولا هذه الاستعادة أو الاستحضار. ولقد تمثّل وعي سيبويه في أرقى أمثلته أن استعمل مصطلحاً خاصاً لهذا الجانب من فهم الكلام، وهو مصطلح (الخلف) ولكننا لم نجد أن هذا التوجّه السيبويي قد حظي عند الخلفين باهتمام يوازي أهميته وفاعليته في فهم النحو العربي. وكان سيبويه قد ذكر (الخلف) في موضعين من كتابه، مع مواضع أخرى طبق فيها سيبويه مفهوم مصطلحه.

تأصيل مصطلح الخلف:

ذكر للخلف معانٍ استعملها العرب وتعارفوا عليها منها الخلف ضد قدام، وهو خلفي أي ورائي، ومنه الخلف الظهر، والخلف يخلّف غيره، وقال في العين: ((والخلف: من الصالحين، ولا يجوز أن يقال: من الأشرار خلف، ولا من الأخيار خلف))⁽⁴⁴⁾. وقيل غير ذلك وذكره البطلوسي في المثلث⁽⁴⁵⁾، واستعمل سيبويه الخلف في مواضع من كتابه فخلف من الظروف قال: ((...وأما خلف فمؤخر الشيء وأمام مقدمه وقدام بمنزلة أمام وفوق أعلى... وهذه الأسماء تكون ظروفًا))⁽⁴⁶⁾. كما استعمل (خلف) لما يخلّف غيره ويقوم مقامه ((وكان الاسم والله أعلم إله فلما أدخل فيه الألف واللام حذفوا الألف وصارت الألف واللام خلفاً منها فهذا أيضاً مما يقويه أن يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف))⁽⁴⁷⁾، وقال أيضاً: ((وإنما منعك أن تحمل الكلام على من أنه خلف أن تقول: ما أتاني إلا من زيد، فلما كان

(43) ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه. المبحث الأول من الفصل الرابع: ١٩٠ وما بعدها.

(44) العين: ٢٦٦/٤.

(45) ينظر المثلث: ٤٨٤/١.

(46) كتاب سيبويه: ٢٣٣/٤.

(47) كتاب سيبويه: ١٩٥/٢.

كذلك حمّله على الموضع فجعله بدلاً منه)) واستعمل خَلَفَ بمعنى المخالفة والكلام غير المستقيم))^(٤٨)، وقال: ((تري أنّك تقول: ما أتاني من أحد لا عبد الله ولا زيد؛ من قبل أنه خَلَفَ أن تحمل المعرفة على من في ذا الموضع))^(٤٩)

أما دلالاته على ما تقدّم من تحليل الجملة وما يكون من متعلقات الجملة الخارجية فقد ضبطه المحقق بالضم (الخَلَفَ) في الموضعين اللذين استعمل فيهما.

الموضع الأول: قوله: ((وتقول: إني عبد الله؛ مُصَغِّراً نفسه لرَبِّه، ثم تفسر حال العبيد فتقول: أكلاً كما تأكل العبيد. وإذا ذكرت شيئاً من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمر فإنه محال أن يظهر بعدها الاسم إذا كنت تخبر عن عمل، أو صفة غير عمل، ولا تريد أن تعرفه بأنّه زيد أو عمرو. وكذلك إذا لم تُوعِد ولم تُفخر أو تُصغّر نفسك؛ لأنّك في هذه الأحوال تعرف ما ترى أنه قد جهل، أو تنزل المخاطب منزلة من جهل فخراً أو تهديداً أو وعيداً، فصار هذا كتعريفك إياه باسمه. وإنما ذكر الخليل - رحمه الله - هذا لتعرف ما يُحال منه وما يحسن؛ فإنّ النحويين مما يتهاونون بالخَلَفَ إذا عرفوا الإعراب. وذلك أنّ رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يُخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقاً، وهو زيد منطلقاً، كان محالاً؛ لأنّه إنّما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو، ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر، وإنما يُضمر إذا علم أنّك قد عرفت من يعني؛ إلا أنّ رجلاً لو كان خلف حائط، أو في موضع تجهله فيه فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسناً))^(٥٠).

فالجملة: أنا عبد الله، أكلاً كما تأكل العبيد، جملة غير مقبولة لأنّه لا يريد أن يكون عبد الله خبراً للضمير؛ إذ لا يستعمل الضمير إلا بعد معرفة المعنى به؛ لكن سيبويه يأتي إلى جهتين لتصحيح الجملة: أولهما اعتماده على ما تعارف عليه الناس، فلفظة عبد الله ليست خالصة في الاسمية، فما تزال دلالتها على صفة العبودية لله قائمة في تداول الناس؛ فكانه أراد تصغير نفسه أو نحو ذلك. والجهة الثانية جهة اشتراك المتكلم مع المخاطب في المكان فعدم تمكن المخاطب من رؤية المتكلم، كان له الأثر في صحة الجملة، فافتراض أن المتكلم لو كان خلف جدار لصح أن يقول أنا عبد الله وإن لم يرد أن يخبر أنه عبد الله، بل ليخبر أنه منطلق في حاجة أو نحو ذلك. فتسويق الجملة مكانياً واجتماعياً هو من جملة ما تفرّد به الخليل وسيبويه في تحليلهم لكلام العرب؛ وأنّ لدرسهما النحوي خصوصية لم

(48) كتاب سيبويه: ٣١٥/٢.

(49) كتاب سيبويه: ٣١٧/٢.

(50) كتاب سيبويه: ٨٠/٢-٨١.

يشركهما فيه أحد. كما يتضح أن سيبويه استعمل الخلف للدلالة على كل ما يمكن أن يكون من مواقف غير لغوية لها علاقة مباشرة بتكوين الجملة على هيئة خاصة وهذه الهيئة لها أثر واضح في عملية استعادة تلك المواقف وإعادة عرضها بوصفها سياقاً افتراضياً. ما يؤكد الصبغة الإنجازية للجملة، وأن على النحوي أن يفهم كل جملة في ظل ظروفها الخاصة التي ولدتها. وأن لكل منها مواقع تتدخل ما بين المتكلم والمخاطب والبيئة المتعلقة بينهما، تتحملها تلك الجملة ووظيفة النحوي الكشف عن تلك العلاقات التي لها مسيس علاقة بانجاز الكلام.

الموضع الثاني الذي استعمل سيبويه فيه الخلف قوله: ((ومن ذلك أيضاً أن ترى رجلاً قد أوقع امرأ أو تعرض له فتقول متعرضاً لعن لم يعنه أي دنا من هذا الأمر متعرضاً لعن لم يعنه وترك ذكر الفعل لما يرى من الحال ومثله بيع المتطلى لا عهد ولا عقد وذلك إن كنت في حال مساومة وحال بيع فتدع أبابك استغناء لما فيه من الحال ومثله (مواعيد عرقوب أخاه بيثرب) كأنه قال: وأعدتني مواعيد عرقوب أخاه ولكنه ترك وأعدتني استغناء بما هو فيه من ذكر الخلف واكتفاء بعلم من يعنى بما كان بينهما قبل ذلك))⁽⁵¹⁾.

فتصور وقوع الجملة في سياق الحال يجعل التركيب ذا فائدة. وندرى أن محاولة سيبويه في هذا الجانب أدت إلى استكناه البنية الدلالية للجملة. وقد نصن سيبويه هنا على ذكر (الحال) وهو الموقف بكل جوانبه ذات الصلة بالممارسة اللغوية. واستعمله قريباً من المصطلح اللساني لـ (سياق الحال Context of situation) على أننا نميز هنا بين ما ذكره سيبويه في أغلب تحليلاته أنه سياق افتراضي لا حقيقي كما في سياق المقام، ولقد وهم كثير من الباحثين⁽⁵²⁾ في عذ ما جاء به سيبويه بوصفه سياق حال وما هو إلا المحتوى الدلالي للجملة أو (الخلف) بمصطلح سيبويه.

إن النحو عند سيبويه في ظل هذا التوجه نحو فهم الجملة هو نحو أداء وانجاز، ونحو حدث يقع في عملية تخاطب؛ وليس النحو مختصراً على كونه نحو تعلق وبناء وتركيب، أو نحو أصول وأقيسة. ولقد عمد سيبويه هنا إلى توثيق مأخذه على نحوي عصره الذين - على ما يبدو - انصب جهدهم على معرفة الإعراب، وهو المظهر الشكلي للكلام. على حين صور هذا التوجه الوظيفي عند سيبويه عبر تعلقه بعناصر من خارج الجملة ضرورة منهجية في تكامل فهم الجملة وتكامل مجالات تحليلها. وقد كان ظهوره فعالاً في طائفة من التركيبات المتداولة التي اشتملت على نقص ما في بذاتها من نحو:

(51) كتاب سيبويه: ٢٧٢/١.

(52) ينظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث؛ و دور السياق في منهج التحليل النحوي عند سيبويه

القرطاس والله، وحديثك، وغيرها. ولقد أتاح هذا الموضوع فرصة تحليلية لإشراك البيئة البصرية عبر مظاهر متعددة استوحاها سيبويه منها.

وهو موضع يكشف لنا أن الدرس اللساني في الكتاب يختلف عما عند بقية العلماء فقد كان جديداً كل الجدة. ومثل مرحلة النظر العميق للجملة، وكما نضج بسرعة. فقد أقل نجمه بسرعة إذ كتبت الغلبة للذين كان جل همهم معرفة الإعراب وتغليب الأقيسة.

لقد ((خط الخليل وسيبويه للنحو العربي ما نذهب إلى أنه رؤية جديدة في فهم الجملة وتحولاتها تمثلت في طائفة النصوص التي تتم دراسة الظاهرة النحوية على وفق ما يمكن أن تحيل إليه من اعتبارات المكان والزمان وطرفي عملية التخاطب (المتكلم والمخاطب) اللذين غالباً ما يتخذان وظيفتي (المائل والمجيب)، وهي الاعتبار التي يتبناها الوظيفيون المعاصرون))^(٥٣).

وكان بعض الباحثين قد توقف عند ما جاء به سيبويه في هذا المجال، ثم قال: ((ولأسف لم أجد من شراح الكتاب ولا ممن جاء بعده من توقف عند هذا المفهوم، فقد ظل نسياً منسياً وهذا لعصري إجحاف في حق الرجل الذي نصب أعلام النحو. وما قيل عن القدامى يقال عن المحدثين لا فرق في (التقصير))^(٥٤) ومع اتفاقنا مع الباحث في تأسفه أنوه إلى أنني عبر فرصة أتحت لي للتأمل والنظر ملياً في كتاب سيبويه كنت أول من عمل على إبراز مفهوم سيبويه للخلف (على حد اطلاعي وبالنظر إلى ما ذكره الباحث في قوله الأنف الذكر) بوصفه جزءاً من المجال الرابع من مجالات التحليل النحوي عند سيبويه وهو مجال المحتوى الدلالي للجملة^(٥٥).

(53) مفهوم الجملة عند سيبويه: ٢٠١.

(54) البعد التداولي عند سيبويه: ٢٥٦.

(55) كان ذلك عند إعدادي للدكتوراه وكان عنوان الأطروحة: مفهوم الجملة عند سيبويه، ومجالات التحليل النحوي لمفهوم الجملة العربية عند سيبويه هي:

١- مجال الأصناف (المقولات) Categories: وهو المجال الذي يتم فيه تصنيف المفردات الرئيسة والفرعية. ويمثل هذا المجال اللبنة الأولى للمنهج وأهمية هذا المجال تكمن في أنه يقدم السمات المميزة للصنف أو للمفردة التي تندرج فيه سواء أكانت هذه السمات بدالية أم دلالية.

٢- مجال العمل Government: وهو مجال الربط بين الأصناف لتكوين نسق الكلام، ويعمل على الإفادة من السمات الخاصة بكل صنف في تمثيل البنية الدلالية للجملة.

٣- مجال البنية Structure: البنية هي النسق البنائي الذي تتخذه المفردات (الوظائف) داخل الجمل، ومن أبرز نتائجه تقديم بنية افتراضية الأصل للجمل في العربية.

ونرى أن لا نقصر هذا التأسف على هذا الجانب من التحليل النحوي في الكتاب بل يمتد إلى ما نراه طمسا للنظرية النحوية في الكتاب، واعتقد أن ذلك نشأ من عدم القدرة على استيعاب ما أتى به سيبويه من طرائق تحليل الكلام، ثم الميل نحو أسلوب تعليمي مبسط ينشده المعلمون لتلاميذهم؛ بل أخذوا يجتزئون من الكتاب على موضع الحاجة.

ومن أماكن الاختيار المؤدية لظهور الإضمار قول سيبويه: ((هذا باب ما يُضمر فيه الفعل المستعمل إظهار في غير الأمر والنهي، وذلك قولك: إذا رأيت رجلاً متوجّهاً وجهة الحاج قاصداً في هيئة الحاج، فقلت: مكة وربّ الكعبة؛ حيث زكّنت أنه يريد مكة، كأنك قلت: يريد مكة والله. ويجوز أن تقول: مكة والله، على قولك: أراد مكة والله، كأنك أخبرت بهذه الصفة عنه أنه كان فيها أمس، فقلت: مكة والله، أي أراد مكة إذ ذاك))^(٥٦) فالتركيب: مكة وربّ الكعبة جملة محوطة وكان اختزال الفعل فيها لإمكانية هذا التركيب من الإحالة إلى موقف واضح أنك المتكلم أن المخاطب مدرك له بقوله: ((حيث زكّنت أنه يريد مكة...)).

ويقول سيبويه بعد النص السابق: ((ولو رأيت ناساً ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا لقلت: الهلال وربّ الكعبة؛ أي أبصروا الهلال. أو رأيت ضرباً فقلت على وجه التفاؤل: عبيد الله، أي يقع عبيد الله أو عبيد الله يكون، ومثل ذلك أن ترى رجلاً يريد أن يوقع فعلاً، أو رأيته في حال رجل قد أوقع فعلاً، أو أخبرت عنه بفعل فتقول: زيداً، تريد: اضرب زيداً أو اتضرب زيداً))^(٥٧) فكان سيبويه يقدم لنا مشهداً مسرحياً يظهر فيه جماعة يترقبون الهلال وبعيداً عنهم يقف المتكلم وهو مطلع على أمرهم، فإذا كبروا عرف المتكلم أنهم قد أبصروا الهلال لأن التكبير في مثل هذا المقام يعني رؤية الهلال. ويتخذ المخاطب موقفاً قريباً من المتكلم ناظراً إلى الجماعة غير عالم بخبرهم فإذا قال

٤- مجال المحتوى الدلالي: مجال فهم الجملة وإدراكها وبعد تركيب ما صحيحاً إذا كان باستطاعة المخاطب إدراك سطوة الدلالي (الواقعي والمفترض)؛ والمحتوى لدلالي هو معنى الجملة مقترناً بالمقام والسياق اللغوي، والبحث فيه يتجه نحو الناحية الوظيفية (الدلالية)، وبيان أثر المتكلم والمخاطب في امتداد الجملة وانتهائها بالسكوت.

٥- المجال القبلي (الأصل) kamai: تبرز هنا مسألة الأصل والفرع إذ لكل مظهر كلامي أصل سابق عليه . سواء على مستوى المفردات أم تركيبات. وتظهر في هذا المجال البنى الافتراضية (البنية الأصل والبنية المعيقة) للجملة، والتحويلات التي تطرأ على البنى السطحية والمنطوق من الكلام. ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه، الخاتمة: ٢٧٨-٢٨٢.

(56) كتاب سيبويه: ١/ ٢٥٧.

(57) كتاب سيبويه: ١/ ٢٥٧.

المنكلم:الهلل؛ فهم منه المخاطب أن الجماعة قد أبصرت الهلال.وكذلك الحال في البقية فالمحتوى الدلالي الذي يقدم سيبويه ههنا يتضمن حقائق خارجية هي:

الجماعة المترتبة لولادة الهلال.

المنكلم وموقعه البعيد عن الجماعة.

معرفة للمنكلم الضمنية بما اجتمعوا لأجله.

العادات الاجتماعية تفرض سيطرتها على السلوك اللغوي.(فكبروا...)

المخاطب وموقعه من المنكلم.

رؤية المخاطب أو معرفته بوجود الجماعة.

عدم معرفة المخاطب سبب اجتماعهم.

سماع المخاطب تكبير الجماعة... وهكذا.

وقد عبر د.نهاد الموسى عن هذا المحنى عند سيبويه بقوله: ((وهذه آيات دالة على أن سيبويه أدرك ما يكون من انعدام اللغة في نظامها الداخلي الخاص، بالحياة في مجالها الخارجي العام))^(٩٨).

وكان د.نهاد الموسى قد أطلق على هذا الجانب من التحليل (البعد الخارجي في التحليل النحوي عند سيبويه)^(٩٩). ومن الممكن إضافة بعض الاحتمالات لهذا المشهد السياقي الذي يفترضه سيبويه في القول بدلالة الكثرة الواحدة(زيداً ونحوها) على جملة تامة حذف فعلها لدلالة الحال عليه وعلم المستكلم بأن المخاطب يشاركه في تبني مجموعة من التوافقات الخطابية مما يمكن عده في إطار (مبدأ التعاون) الذي قال به غرايس.

من الظواهر الواضحة في الجملة العربية أن يتم الاستغناء عن بعض مكوناتها لما يسوقه بناء الجملة المتحققة للمستمع من ملاحظة ما استغني عنه. وقد جرى مثل ذلك في طائفة من التركيب اختزل فيها الفعل(كما عبر سيبويه)على نحو الاختيار لا الإلزام من نحو قوله:((هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل. وذلك قولك: زيداً، وعمراً، ورأسه.وذلك أنك رأيت رجلاً يضرب أو يشتم أو يقتل، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله فقلت: زيداً، أي:أوقع عملك بزيد.أو رأيت رجلاً يقول: أضربُ شرَّ الناس فقلت: زيداً، أو رأيت رجلاً يحدث حديثاً فقطعه فقلت: حديثك، أو قدم رجل من سفر فقلت:حديثك، استغنيت عن الفعل بعلمه أنه مستخبر، فعلى هذا يجوز هذا وما أشبهه. وأما النهي فإثمه التحذير، كقولك:الأسد الأسد، والجدار الجدار، والصبي الصبي؛ وإنما نهيت أنه يقرب الجدار المخوف المائل،

(58) نظرية النحو العربي: ٩٠.

(59) ينظر: نظرية النحو العربي: ٨٨.

أو يقرب الأسد أو يوطئ الصبي...) (١٠). وهو ما نفهمه من قول سيبويه فيما سبق بقوله: ((إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل)). وكذلك قوله: ((...بعلمه أنه مستخبر...)). فهكذا حال من تخاطبه إذ يجب لتحقيق القصد من الكلام أن يفهم المقابل ما تحاول أن توصله إليه وإلا استحال الأمر.

ثم إن الذي تريد إيصاله ربّما يتجاوز كثيراً ما تلفظ به؛ وذلك ما أبان سيبويه عنه في الفعل المحذوف. وكذلك فيما تقدم من دلالة الحال على وجود الاسم الموصوف بها. ومن الواضح أن سيبويه يرى أن هذه الكلم جمل تامة لأن بناءها الظاهر يتضمن محتوى دلاليًا مثلما تتضمنه الجمل التامة البناء. ويظهر المحتوى الدلالي متضمنًا موقفًا هو عبارة عن طائفة من الأحداث يقوم بها الطرف الأول برأى ومسمع من الطرف الثاني الذي سيختد وظيفة الأمر أو المستخبر أو المحذّر للطرف الأول (الذي سيكون المخاطب). فللكشف عن المحتوى الدلالي يجب رسم صورة للبيئة التي أنتجت الجملة بكل أطرافها.

فالنص يبين كيف يتم الانسباق مع مبدأ التعاون المتقّم ذكره إذ يقترن بآثار خارجية متوجة نحو الحواس والإدراك فالحال أو الموقف والمعرفة السابقة سمحا بهذا المسلك الاختياري في اختزال العنصر المولد والأساسي في الجمل مع بقاء هيمنتها في إنشاء الجمل؛ وربط مكوناتها بعضها ببعض.

كما تجب هنا ملاحظة الأثر الوظيفي الذي تلبس المتكلم والمخاطب فيصبحان سائلًا ومجيبًا كما في طائفة من الجمل المحولة التي اشتملت على نقص تركيبّي عن نمطها الأساس؛ فمما لا يجوز فيه الأزواج الوظيفي أن توضع الصفة في موضع الاسم إلا في مواضع معينة وللبهنة على ذلك يعتمد سيبويه إلى ملاحظة المحتوى الدلالي للجملة فهو يقول: ((وما يبين لك أن الصفة لا يقوى فيها إلا هذا أن سائلًا لو سألك فقال: هل سير عليه؟ نقلت: نعم؛ سير عليه شديدًا، وسير عليه حسنًا. فالنصب في هذا على أنه حال. وهو وجه الكلام؛ لأنه وصف للسير، ولا يكون فيه الرفع لأنه لا يقع موقع ما كان اسمًا، ولم يكن ظرفًا لأنه ليس بحين يقع فيه الأمر)) (١١).

إن الصورة الظاهرة للجملة هي التي تقرر محتواها الدلالي ومن ثمّ السياق الذي يمكن أن ترد فيه. فوجوب النصب للوصف وعدم جواز رفعه مكن سيبويه أن يقدم محتواها الدلالي على وفق سؤال وجواب. ومن ثمّ فإن سيبويه يضع في اعتباره أن المنطوق هو الذي يكشف عن المحذوف ويكشف عن البنية الأولى التي صيغت عليها الجملة، ولذا فإن المنطوق يتبادل الأثر مع سياقه في طبيعة تكوينه،

(60) كتاب سيبويه: ١/ ٢٥٣.

(61) كتاب سيبويه: ١/ ٢٢٨.

والتحويلات التي تعريه. ومن هنا يمكن القول أن عملية التحويل عن الأصل هي عملية تركيبية، وأنها تطال التركيب حسب وليس هناك بنية دلالية محولة، بل هي بنية واحدة تمتلك أكثر من تركيب لتمثيلها.

نتائج البحث:

١- المكان هو البيئة الذي يحيط بالكلام إنتاجاً ونظراً ولقد نظر الاتجاه التداولي المعاصر إلى الكلام بوصفه انجازاً تتوارد فيه آثار متعددة من خارج اللغة فتكتنزها جملة ودلالات مفرداته. وزدنا على هذا القول أن جزءاً من تلك التداولية تكمن في عالم اللغة نفسه فهو لم يكن بمنأى عن التأثير بالبيئة المحيطة وحاله في ذلك كحال المنكلم، فسيعد بوعي أو بغيره إلى اكتناز عناصر المكان والزمان والميول الاجتماعية المعاشة في فهم مكونات درسه اللغوي، ومحاورة ومنهج معالجة لغته. فلا يقصر النظر التداولي على مكونات اللغة ذاتها؛ بل يضاف عليها الطرائق المتبعة لفهمها.

٢- من هنا رجع للباحث أن سيبويه كان قد وضع لمؤلفه اسماً هو كتاب سيبويه أو الكتاب، على عادة معروفة عند العرب في إنتاج دواوينها وذكر أيامها، ولعل سيبويه قدم لنا في كتابه ما يفيد في هذا المجال، وهو نص منه على هذا النزوع، مع إدراجه لاسمه (عمرو) في هذا النص.

٣- كما يرجح لدى الباحث أن سيبويه قدم بعض ما يؤصل عريته الحضارية والاجتماعية بإنكاره أن عمرويه قد لحقته لاحقة أعجمية. وأنه كان ربيب عمق تاريخي لعائلة يبادر من اسمه ونسبه، كما أن انتماء سيبويه لمجتمعه مثل أعلى مراحل بنظرته إلى اللغة العربية بوصفها لغة خطاب.

٤- كان الملمح الاجتماعي وأثره في الدرس النحوي في الكتاب يلح على أخذ التوجيه النحوي في محاور كثيرة نحو اعتبارات اجتماعية أو مظاهر تلك الحياة ليتم له صياغة أفكاره على تلك المحاور.

٥- وعلى هذا فقد سار سيبويه على محورين رئيسين لتحليل كلام العرب في ظل من أسناده الفراهيدي والمحورين هما:

أ- محور افتراضي قبلي يهتم بالتركيب والعلاقات القائمة بين مكونات التركيب الواحد، بغض النظر عن المعنى.

ب- المحور الدلالي-التداولي، فالكلام تواصل وأخبار وتبادل للمعلومات وهو المحور التي اهتم البحث برصد بعض مظاهرها التي تؤكد الوعي السيبويهي في هذا المجال، وهو ناحية مهمة افتقدتها الدرس النحوي العربي بعد الخليل وسيبويه كما لم تكن من همه قبلهما. ولقد قدم فيه سيبويه افتراضاً سياقياً سمّاه الخلف للدلالة على نل الملابس الخارجية التي تحيط بعملية التواصل (المتكلم والمخاطب أو المتلقي والظرف المكاني والزمني الذي أنجز فيه الكلام، مع اعتبارات اجتماعية

باقدم باحثينا نصنع الحياة ١٣. ١٤ نيسان ٢٠١٢

متعددة تخص كل تلك المتعلقة). ولقد كان هذا التحليل مهماً عند سيبويه ولا نبالغ إذا قلنا إن المحور العقلي الألف الذكر هو نتيجة لهذا المحور، ولقد استوحى سيبويه من البنية الدلالية للجملة، وأثرها التداولي بنيتها التركيبية اقلية، وعلى ذلك فالمستوى القبلي للجملة هو مستوى تركيبى مجرد، يجري تحويله في مراحل التحويل بما يخدم الدلالة المرادة والعملية التواصلية.

ثبت المظان:

١- أسلوب النداء دراسة لغوية صوتية، د. طارق الجنابي، (ضمن كتاب أبحاث عربية في الكتاب التكريمي المستشرق الألماني فولفديترش فيشر، إعداد وإصدار: د. هاشم اسماعيل الأيوبي، ط١، ١٩٩٤).

٢- الاقتضاء في التداول اللساني، د. عمر فاخوري، عالم الفكر، مج ٢٠، ع ٣، ١٩٨٩.

٣- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي (٣٣٧هـ)، تحدد: مازن المبارك، دار النفائس، مؤسسة مطابع معنوق، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٤- البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، عالم الفكر، ع ٣٣، ٢٠٠٤م.

٥- التعليل في الذرر للنحوي (نظرة في أصول اللغة)، مجلة جامعة كربلاء، المجلد ٧، ٨، ٢٠٠٩.

٦- تكوين الجمل وامتدادها عند سيبويه في ضوء منهجه التفسيري للنحو، مجلة ثقافتنا، دائرة العلاقات الثقافية، وزارة الثقافة العراقية، العدد ٥، ٢٠٠٧-٢٠٠٨.

٧- كتاب الجمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ)، تحدد: د. منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

٨- دور السياق في منهج التحليل النحوي عند سيبويه، موسى إبراهيم موسى حسن الشلقاوي، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٩- سيبويه إمام النحاة، علي النجدي ناصف، مكتبة النهضة، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

١٠- سيبويه: حياته وكتابه، د. حديجة الحديثي، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

١١- فتوح البلدان، البلاذري مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة.

١٢- الجمل في النحو، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ)، المحقق: د. فخر الدين قباوة، ط ٥، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٣- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ)، تحدد: مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دائرة الشؤون الثقافية العامة، دار الحرية للطباعة، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤.

- ١٤- كتاب سيبويه ويليّه تحصيل عين الذهب في علم مجازات العرب لمؤلفه يوسف بن سليمان الشنتمري، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١٥- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن سيبويه، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط١، ١٣١٦هـ.
- ١٦- كتاب سيبويه، محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.
- ١٧- الكتاب-كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٥هـ)، تح: عبدالسلام محمد هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د.ت)، وهي النسخة للمعمدة.
- ١٨- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (٧١١هـ)، مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، مطبعة كوستانتوماس وشركاؤه.
- ١٩- اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ت.د.عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٧.
- ٢٠- المثلث، ابن السيد البطلاني (٤٤٤هـ - ٥٢١هـ)، تح: د.صلاح مهدي الفوطوسي، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٢١- مراجعات لسانية مقالة لنحويين الرواة، د.حمزة بن قبالان المزيني، كتاب الرياض، ج٢ (مراجعات لسانية)، ١٤٢٠هـ.
- ٢٢- المرجعية اللغوية في النظرية التداولية، د.عبدالحليم بن عيسى، مجلة دراسات أدبية، الجزائر، ع١، ٢٠٠٨.
- ٢٣- المفهوم التكويني لنظرية العامل النحوي عند سيبويه، تحليل وتوجيه، د. غالب المطليبي ود. حسن عبدالغني الأسدي، مجلة المورد العراقية، ع٣، ١٩٩٩ م.
- ٢٤- مفهوم الجملة عند سيبويه، د. حسن عبد الغني الأسدي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ٢٥- من أعلام البصرة سيبويه هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه، د.صاحب جعفر أبو جناح، منشورات وزارة الإعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٢٦- منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، د.محمد كاظم البكاء، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٩م.
- ٢٧- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د.نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٢٨- الاقتضاء في التداول اللساني، د.عمر فاخوري، عالم الفكر، مج٢٠، ع٣، ١٩٨٩.